

سيمياء المحكي العجيب في رواية وشيء آخر لعبد الملك مرتاض

The semiotics of the strange narration in a novel and something else by Abdulmalik Mortad

ط.د: زهرة إدريس *

أ.د: هوارى بلقاسم *

تاريخ النشر: 2021/09/15	تاريخ القبول: 2021/06/01	تاريخ الإرسال: 2021/01/23
-------------------------	--------------------------	---------------------------

الملخص:

يهدف البحث إلى الكشف عن العلامات الفارقة في رواية وشيء آخر لعبد الملك مرتاض؛ حيث تعدّ الرواية من النماذج التي حفلت بتوظيف العجيب أو العجائبي في مكوناتها السردية في الخطاب السردى العربى بلّة الجزائري. كما انتحت الدراسة المنهج السيميائى. وقسم البحث إلى ثلاثة مباحث رئيسية، الأول تناول مفهوم المحكي العجيب. أما الثاني فدرس إشكالية مصطلح العجيب. وانتهى الثالث بمقاربة محكي رواية وشيء آخر العجيب سيميائيا. انطلاقا من إشكالية محورية تمثلت في: ما هي أهم العلامات الفارقة في محكي الرواية العجيب؟

الكلمات المفتاحية: عجيب، مصطلح، كرونوتوب، سيميائية، شخصية.

Abstract:

The research aims to uncover the distinguishing marks in novel and something else by Abdel-Malek Motad. As the novel is considered one of the examples that was full of employment of the wondrous or miraculous in its narrative components in the Arab narrative discourse, the Algerian man.

المؤلف المرسل: إدريس زهرة zahraidres1989@gmail.com

* مختبر السيميائيات وتحليل الخطاب، كلية الآداب والفنون، جامعة وهران 1 أحمد بن

بلّة zahraidres1989@gmail.com

جامعة وهران 1 أحمد بن بلّة، houaribelkavem00@yahoo.fr

The study also proposed the semiotic method. The research was divided into

three main topics..Based on a central problem: What are the most important distinguishing signs In the strange narrative of the novel?

Key words: wonder, term, chronotope, semiotics, personality.

*** **

. مقدمة:

باتت المحكيّات الروائية المعاصرة تتجه نحو توظيف تقنيات جديدة في الكتابة، ومنها العجيب؛ وتعدّ رواية وشي آخر لعبد الملك مرتاض من بين النماذج التي حفلت بالعجيب في جميع مكوناتها السردية و في الخطاب السردى الجزائري. كما انتحينا في دراستنا المنهج السيميائي من أجل الكشف عن العلامات العجيبة في الرواية المختارة.

إثر ذلك قسمنا البحث إلى ثلاثة مباحث؛ الأول تناول مفهوم المحكي العجيب. أمّا الثاني فعالج قضية إشكالية مصطلح العجيب. وانتهى الثالث بمقاربة سيميائية للمحكي العجيب في الرواية المختارة. انطلاقا من إشكالية محورية وهي: فيما تمثلت العلامات الفارقة في محكي رواية وشي آخر العجيب؟ تفرّعت عنها أسئلة محورية، وهي: ما مفهوم المحكي العجيب؟ كيف تجلت إشكالية مصطلح العجيب؟ ما أهم العلامات العجيبة التي تجسدت في الرواية المختارة؟

2. مفهوم المحكي العجيب

1.2 المفهوم اللغوي:

قبل التولّج في البحث عن المفهوم اللغوي للفظة "العجيب" لا بدّ من البحث عن لفظ "محكي" في المعجم العربي؛ فقد وردت هذه اللفظة الأخيرة في معجم لسان العرب، مادة (حكى)، قول صاحبه: "حكى: (الحكاية): كقولك حاكيتُ فلانا وحاكيتُهُ فعلتُ مثلَ فعلِهِ أو قُلْتُ مثلَ قوله سواءَ لم أجاوزهُ، وحكيْتُ عنه الحديثَ حكايةً".¹

حيث عنت لفظة "محكي" لغويًا كلَّ ما يُحكى ويُقال، فهو كل حكاية شفوية كانت أو مكتوبة. فما مفهوم العجيب؟

وردت لفظة "العجيب" أيضًا في لسان العرب، مادة (عجب)، قول صاحبه: "العُجْبُ والعَجَبُ: إنكارٌ ما يردُّ عليك لقلَّةِ اعتياده، وجمعُ العَجَبِ: أعجابٌ، الفراء: العَجَبُ إن أُسِنِدَ إلى الله فليسَ معناه من الله كمعناه من العباد. قال الزجاج: أصل العَجَبِ في الله أن الإنسان إذا رأى ما يُنكرُهُ ويَقِلُّ مثلهُ قال: قد عَجِبْتُ من كذا. ابن الأعرابي: العَجَبُ النَّظَرُ إلى شيءٍ غيرِ مألوفٍ ولا مُعتادٍ. وأمرٌ عُجَابٌ وعَجَابٌ وعَجَبٌ وعَجَبٌ، وعَجَبٌ عَاجِبٌ وعُجَابٌ على المبالغة، يؤكِّد به"².

يلاحظ من هذا التعريف أن العجيب يعني: ما يقلُّ اعتياده ويتعجَّب منه، و النظر إلى شيء غير مألوف ولا معتاد؛ كما فرَّق الخليل بن أحمد الفراهيدي بين العجيب والعُجَاب، حيث يقول في معجمه العين، مادة (عجب): "بين العجيب والعُجَاب فرْقٌ؛ أمَّا العجيبُ فالعَجَبُ يكون مثلهُ، وأمَّا العُجَابُ فالذي تجاوز حدَّ العجب. والعجيب: الأمر يتعجَّب منه. وأمرٌ عجيبٌ: مُعْجَبٌ. وقولهم: عَجَبٌ عَاجِبٌ، كقولهم: ليل لائلٌ، يؤكِّد به. ولا يُجمعُ عَجَبٌ وعَجَبٌ. ويقال: جمع عجيب عجائبٌ، مثل: أفيل وأفائل"³.

أبدى الخليل الفرق بين العجيب والعُجَاب؛ وجعلَ العجيبَ مثلَ العَجَبِ، أمَّا العُجَاب فيتجاوز معنى العَجَب؛ وقد أشار ابن منظور من قبل أن العَجَب هو إنكار ما يرد على الشخص من شيء يقل اعتياده، فيُتَعَجَّب منه.

ورد العجيب أيضًا في القرآن الكريم في آيات مختلفة:

- قال تعالى: "قَالَتْ يُؤْتِلَنِي ۖ أَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ"⁴.

- قال أيضًا: "بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ"⁵.

- قال جلا وعلا: "أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ ءَايَاتِنَا عَجَبًا"⁶.

- قال عزوجل: " قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْخُوتَ وَمَا أَنَسْنِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا "⁷.

- قال أيضا: " قُلْ أُوْحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا "⁸.

إنّ هذه المعاني اللغوية للفظة العجيب لا يمكن أن تكون وحدها كافية للوصول إلى غاية المفهوم؛ مما يجب البحث عن المعنى الاصطلاحي في الدّراسات النقدية. فما مفهوم العجيب اصطلاحاً؟

2.2 المفهوم الاصطلاحي

عرّف المحكي العجيب (Meveilleuse) تعريفات متعددة لدى الباحثين والنقاد وكذا المهتمّين بالدراسات العجائبية؛

ذكره القزويني في كتابه " عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات " من خلال لفظة "العجب"، حيث يقول: " العجب حيرة تعرض للإنسان قصوره عن معرفة سبب الشيء أو عن معرفة كيفية تأثيره فيه "⁹.

يبدو من مفهوم القزويني أنّ العجيب يعني الحيرة التي تنتاب الإنسان عند جهل بشيء وعدم معرفته به أو طريقة تأثيره فيه.

كما عرّفه تودوروف (Todorov)، مميّزا بينه وبين لفظ " الغريب " حيث يقول: " إذا قرّر القارئ أن ينبغي قبول قوانين جديدة للطبيعة، يمكن أن تكون الطبيعة مفسّرة من خلالها، دخلنا عندئذ في جنس الغريب "¹⁰.

إنّ هذا التمييز الذي أقرّه تودوروف بين الغريب العجيب، قد أبان أنّ هذا الأخير لا يقبل قوانين جديدة للطبيعة يفسّر من خلالها، وإنّ قبلها فهو جنس الغريب.

في السياق نفسه، ذهب شعيب حليفي مذهب تودوروف؛ فقد حاول أن يُبين العجيب من خلال الرواية العجيبة واعتبرها أحداث وظواهر فوق طبيعية كتكلم الحيوان والطير في السماء، وأيضا المشي فوق الماء، فإذا اختار القارئ وقبل التفسير الطبيعي فهو الغريب، وإذا قبل بالتفسير فوق الطبيعي فهو العجيب¹¹.

لقد مثّل لنا حليفي بما يكون عجيبا في الرواية كتكلم الحيوان مثلا، لكن لا بدّ أن يقبل القارئ بالتفسير فوق الطبيعي وإلا يبقى غريبا.

لكنّ مصطلح "العجيب" لم يكن وحده يحمل هذه المعاني نفسها، فهناك مصطلحات أخرى شاركتها في ذلك ومنها مصطلح "العجائبي" (Fantasdtique)؛ والذي تناوله أهم المهتمّين بالدراسات العجيبة وهو "تودوروف" ووسم به عنوان كتابه "مدخل إلى الأدب العجائبي"، ويعرّفه بأنّه: "التردد الذي يحسه كائن لا يعرف غير القوانين الطبيعية، يواجه حدثاً فوق طبيعي حسب الظاهر"¹².

قد سبق من قبل الإشارة إلى هذه الدلالة في معنى العجيب؛ باعتبار هذا الأخير حدثا فوق الطبيعي؛ وهذا دليل على تشابه المصطلحين في المعنى واقترابهما من الدلالة نفسها.

من خلال ما أوردناه من مفاهيم لغوية واصطلاحية للعجيب، تبدّى لنا أنّ هناك مصطلحات أخرى اقترنت من معناه كالعجائبي، مما أدى إلى ظهور إشكالية في مصطلح العجيب. فكيف تجلت إشكالية مصطلح العجيب؟

3. إشكالية مصطلح العجيب:

تعدّ توظيف مصطلح العجيب لدى الباحثين والمهتمين بحقل العجيب، ممّا أدّى إلى حدوث إشكالية مصطلحية، لذلك ارتأينا أن نحصر بعض هذه المصطلحات من خلال الجدول الآتي:

المراجع	المصطلح	الباحث
(مدخل إلى الأدب العجائبي، تر: الصدّيق بوعلام) (عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات) (معجم المصطلحات الأدبية) (تاريخ الرواية الحديثة، تر: جورج سالم). (قضايا الرواية الحديثة/ تر: صيام الجهيم) (الرحلة في الأدب العربي)	العجيب	تودوروف القزويني إبراهيم فتحي ألبيريس.ر.م ريكاردو جان شعيب حليفي
(مدخل إلى الأدب العجائبي، تر: الصدّيق بوعلام) (السرد والسردانية (عرض لنظريات السردانية العربية المعاصرة،	العجائبي	تودوروف عبد الملك مرتاض

وتحليلات لبعض نصوصها) (شعرية الرواية) الفانتاستيكية/الرحلة في الأدب العربي) (الرواية العربية والحادثة) (معجم المصطلحات الأدبية) (تحليل النص السردي)		شعيب حليفي مُحمَّد الباردي سعيد علوش سعيد الوكيل
عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات)	الغريب	القزويني
(معجم مصطلحات الأدب)	الغرائبية	محمدي وهبة وكمال المهندس
(الأسلوبية وتحليل الخطاب)	الغرائبي	منذر عياش
(الأدب والغربة)	الغربة	عبد الفتاح كليطو
(مفهوم الأدب لتودوروف، تر: عبود كاسوحة)	الخارق	عبود كاسوحة
(نظام الرحلة ودلالاتها)	الحوارقي	عليمة قادري
(شعرية الرواية الفانتاستيكية) (معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة)	الفانتاستيك	شعيب حليفي سعيد علوش

عبد الملك مرتاض		(السرد والسردانية (عرض لنظريات السردانية العربية المعاصرة، وتحليلات لبعض نصوصها)
مجدي وهبة سعيد علوش	الفانتازيا	(معجم مصطلحات الأدب) (معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة)
عبد الملك مرتاض	المدهش	(السرد والسردانية (عرض لنظريات السردانية العربية المعاصرة، وتحليلات لبعض نصوصها)
مُجد عَناني	الخرافة	(المصطلحات الأدبية الحديثة)

يلاحظ من الجدول أنّ مصطلح العجيب قد عرف إشكالية مصطلحية؛ فكلّ ناقد اختار المصطلح الذي ناسبه في فكره واتّجاهه المعرفي؛ حيث بلغ عدد المصطلحات التي حصرناها اثني عشر مصطلحا وهي:

1-العجيب/2-العجائبي/3-الغريب/4-الغرائبي/5-الغرائبي/6-الغريبة/7-الخارق/8-الخوارقي/9-الفانتاستيك/10-الفانتازيا/11-المدهش/12-الخرافة.
أمّا إذا ذهبنا إلى معرفة كل مصطلح على حدا؛ من خلال عدد الباحثين الذين وظّفوه، فإننا نجد ما يلي:

أكثر المصطلحات توظيفا من طرف الباحثين هو "العجيب، و"العجائبي" بستة باحثين. يليهما مصطلح "الفانتاستيك" بثلاثة باحثين، وبعدهم مصطلح "الفانتازيا" بباحثين اثنين. أمّا بقية المصطلحات (الغريب، الغرائبي، الغرائبية، الغريبة، الخرافة، المدهش، الخارق، الخوارقي) فوظّفها مؤلّف واحد.

كما بدا لنا أنّ هناك باحثين وظّفوا عدّة مصطلحات ولم يكتفوا بمصطلح واحد، وهم: تودوروف، عبد الملك مرتاض، شعيب حليفي، القزويني، مجدي وهبة وكمال المهندس، سعيد علوش.

أمّا المصطلح الذي يكاد يخرج من دائرة الغريب أو أنّه لا يشابه المصطلحات الأخرى في الماهية وهو "الخرافة" وقد وظّفه "محمد عناني" ونقول: أنّ الباحث لم يوفّق في اختيار المصطلح؛ كون بقية المصطلحات تتشارك في خصائص تبعدها عن كلّ خرافة؛ والخرافة هي "قصّة متداولة عن الأزمنة القديمة، ومقبولة شعبيا بوصفها حقيقة..."¹³.

ومهما يكن من هذا الإشكال المصطلحي، فإن كثير من هذه المصطلحات يوظفها الباحثون في مؤلفاتهم على أنّها مصطلح واحد؛ كالغريب والعجيب/العجائبي والعجيب/العجيب والفاستاستيك...

فلاحظنا أنّ بعض الباحثين العرب قد نقل المصطلح بلفظه ومعناه كما ورد في معناه الغربي، وآخرين وظّفوا مصطلحات عُرِفَتْ في تراثنا العربي؛ كالعجيب والمدهش والخارق، وفريق ثالث، اضطرب في توحيد مصطلحه فوظّفه معرّباً حرفياً مرة، و مختاراً مرّات أخرى.

إنّ سبب إشكال المصطلح يرجع إلى تعدد الترجمة من جهة، و اختلاف المناهل والمرجعيات الفكرية لدى الباحثين من جهة أخرى؛ ضف إلى ذلك عدم توافق النقاد على مصطلح واحد لعدم وجود مدرسة خاصة تهتمّ بتوحيد المصطلحات في شتّى المجالات بلّة الأدبية. وحدد الدكتور يوسف وغيلسي آليات إنتاج المصطلح في: الاشتقاق، الاستعارة أو المجاز، التعريب، النحت، الوضع، الترجمة¹⁴.

ومنه وبعد دراسة المحكي العجيب نظرياً؛ من خلال مفهومه، وإشكالية مصطلحه، فكيف تجلّى في الرواية المختارة؟

4. مقارنة سيميائية لمحي رواية وشيء آخر العجيب

إنّ رواية وشيء آخر من الروايات المتفرّدة في توظيف تقنية العجيب أو العجائبي في مكوناتها السردية، سواء في الشخصية أو الزمن أو المكان أو الحدث، وحتى العنوان، بل كلّ عتباتها السردية تلوّنت بالعجيب.

واختارنا في دراستنا التطبيقية، ثلاثة عناصر وهي: أولاً: سيميائية الشخصية العجيبة، ثانياً: سيميائية الكرونوتوب. وثالثاً: سيميائية الحدث العجائبي.

1.4 سيميائية الشخصية العجيبة في الرواية:

تعدّ الشخصية الرواية عنصراً مهماً، ومكوّن أساسياً في الرواية لارتباطها بالأحداث والوقائع التي تجري في سياقها، كما تحمل صفات التغير والتبدّل والتحوّل، وليست بالضرورة إنساناً، بل قد تكون حيواناً أو أرواحاً وحتى نباتاً.

حيث عرفها أحد الباحثين بأنّها "القطب الذي منه ينطلق الحدث فوق الطبيعي وعليه يقع، أي أنها إحدى المكونات الأساسية في تحديد الفانتاستيك من خلال المميزات الخلافية، والمتجلىّة في الأوصاف والسلوك النسبي والمادي والأفعال المتجسّدة من الحركات والأقوال"¹⁵.

كما تتعدد الشخصيات العجيبة بتعدد دورها؛ فمنها الشخصيات الدائرية حسب تسمية "فورستر (Forester)"; وغالباً ما يومئ ظاهرها إلى داخلها كمرآة عاكسة، وتشكّل عالماً كلياً ومعقّداً، يتطلب من المتلقّي دقّة الاستيعاب، وهناك شخصيات مسطّحة، سماتها محدودة، ودورها استثنائي في المشهد العجائبي أو العجيب.¹⁶

حيث تتميز هاتين الشخصيتين بوظيفتين، وهما¹⁷:

- شخصيات ذات وظيفة واصلة: تقوم بالربط بين عالم الأحداث والتلقي.
- شخصيات ذات وظيفة إيضاحية: تقوم بتوضيح ما غمض وأبهم.

أما دورها، فحدده "فيليب هامون" في أدوار ثلاثة: وهي الرغبة أو القدرة أو المعرفة؛ فالأول يتمثل في الترغيب في الأحداث وهي علاقة الذات بالمرغوب. أما الثاني فهي قدرة الشخصية على التأثير في الحدث من خلال تحويلها أو قدراتها الداخلية أو الخارجية وخرقها للواقع. والثالث هي المعرفة هدفها إثارة المتلقي وتشويقه وتولّد فيه حيرة وتردد، تفسر أشياء فوق الطبيعية¹⁸.

إنّ الشخصية العجيبة تبقى دائما في الرواية تثير الدهشة والعجيب والغرابة؛ كأنّها حمّالة علامات ورموز وشفرات للقارئ/المتلقي.

أما تجلي الشخصية العجيبة في رواية وشي اخر لعبد الملك مرتاض فتجلى في شخصية "سارة الزيتونية" و "خناتيتوس الجنية" وشخصيات أُخر. فشخصية "سارة الزيتونية" تمثلت العجائية فيها في تغيّر حالها بسرعة من حالة فقر إلى حالة غنى، وكذا تكلمها كنسّانة مع الجان ومصادقهم، وحتى لبس ثيابهم، يقول السارد: "كيف عرفتي يا خناتيتوس، ثم ظهرت لي عيانا؟ وكيف يُمكن ن يحدث هذا؟ لم أكن قطّ أنتظر أن تكون لي صديقة أنيقة جميلة من الجن أطمئن إليها، ولا أفزع منها..¹⁹".

يبدو أنّ سارة الزيتونية قد خرقت العادة ونشرت الدهشة في بلدة "الزيتونيين" وحتى لدى القارئ/المتلقي بحديثها مع الجنية خناتيتوس الملكة؛ إنّ سارة الزيتونية لتشبه شهرزاد في ألف ليلة وليلة بامتزاج الخيالي مع الواقعي، إنها شخصية دائرية و ذات وظيفة واصله.

2.4 سيميائية الحدث العجيب في الرواية المختارة:

إنّ الحدث العجيب في الرواية هو ما يتأرجح ويزاوج بين الواقع والخيال، فهو "لقاء بين المؤلف واللامألوف، بين أدوات طبيعية وأخرى غير طبيعية غيبية لايجاد حالة من النج بالواقع بكل وضوحه الكاذب وأوهامه المغلقة في المازق"²⁰.

ومنه فالحدث العجيب يدهش المتلقي ويترك في نفسه غرابة ودهشة، وأمرًا غير متوقَّع؛ مما يدفعه إلى تتمته دفعا بكثير من الشوق والشغف في معرفة اللاحق من الأحداث.

باتت جلّ أحداث رواية وشيء آخر عجيبة؛ خارقة للعادة كحدث خروج الجنية خناتيتوس لسارة الزيتونية في الحقل، "وبينما هي منهمكة في سقي أشجار حديقتهما من ماء إحدى العيون السبع التي كانت تهمر من الوادي المفضي إلى حيث حقلها..فجأة سمعت حفيفا خفيفا لطيفا يقترب منها. ظنّت ذلك حفيفا لطائر جرح كان يريد أن يقع حولها..لكنّ الأمر هذه المرة مخالفا لظنّها، بل قد رأت امرأة غريبة تريم بجانبها ربما..كأنّها خلقت في مكانها، لكن سارة لا تعرفها. لم تر هذه المرأة قبلا. رأت فيها امرأة عوانا، لم تكن فتاة مُعصرا، أو عجوزا شمطاء، كانت تبدو في هيئة أنيقة جدا..لم تدر من أين خرجت عليها؟ أنجّمت من الأرض أم نزلت من السماء؟ لاحظت أن ساقها مشعرتان كثيرا. كانت رجلها تشبهان رجلي الحمار.على فائق جمالها..على أناقة سبرها..كان في رجلها شيء يشبه حوافر الدابة. استعجبت سارة من ذلك وفزعته..."²¹.

يتمثل الحدث العجيب هنا في خروج جنية لسارة الزيتونية في صورة امرأة جميلة وأنيقة فجأة، وهو مخالف لظنها الذي اعتادته كخروج طيور جارحة أو ماشابه ذلك، لكن ما حدث لم يكن متوقعا أصلا، وما يزيد الحدث عجائبية وصف السارد العجيب والمخيف للجنية، واندعاش سارة وتعجبها وفزعها كأني إنسان يحدث له الحدث نفسه.

كما بدا حدث آخر عجيب في لبس الإنسانية سارة لباس الجنية خناتيتوس بعد عرض هذه الأخيرة عليها " ولأني أريدك أن تكوني ملكة الزيتونة العليا، كما أنا ملكة الزيتونة السفلى، التي عاصمتها التخشضر الأدنى، أعرض عليك حلّي لتتحلّي بها. أنا لي الكثير

منها...لم تدر سارة كيف تجيب خناتيتوس، تسارعت الأفكار إلى خاطرها. ونسلسلت الخوارق عليها. صمتت وجمدت حركتها...أعتنمن خناتيتوس دزل سارة لتستأنف قائلة:

خذي ! هاك ! وما لله لتتحلّين بحلّي هذه، الآن وليس بعداً! اليوم وليس غدا..."²².

من العادة أن لا يستطيع الإنس الاقتراب من الجن حتى ولو رأوهم فكيف يتحلّوا بثياهم؟ إنّه مفارقة العجيب يبدي بظلالها في الرواية فيصير المستحيل ممكنا، وتتحلّى سارة بثياب الجن وتبأهى به أمام فتيات بلدتها متبعة في ذلك شروط صديقتها الجنية المؤمنة، وصادقتها. وأيضا غالبا ما يكون الجن -في ظن الناس- أنهم خلقوا ليكونوا بعيدين عنهم والاقتراب منهم أذية، فالرواية تبين العكس، فلم يكن الاقتراب منهم إلّا أنسا، بل هو لا حدث، إنما هو حياة مختلفة في مكان واحد، أحدهم في الأعلى والثاني في الأسفل.

3.4 سيميائية الكرونوتوب (Chronotope) في الرواية:

كان أوّل من أطلق مصطلح الكرونوتوب في الزمن والمكان العجيبين هو ميخائيل باختين²³؛ ومن ثمة شاع ظهوره في النقد الأدبي، فعزّفه بأنه "العلاقة المتبادلة الجوهرية بين الزمان والمكان المستوعبة في الأدب استيعابا فنيا اسم كرونوتوب (Chronotope) مما يعني حرفيا الزمان والمكان. وهذا المصطلح نقل إلى علم الأدب على أنه استعارة تقريبا، إنّ ما يعيننا فيه الترابط الوثيق بين المكان والزمان، إنّنا نفهم الزمكان على أنه مقولة شكلية مضمونية من مقولات الأدب"²⁴.

حيث يوجي التعريف بترابط الزمان مع المكان واتصالهما اتصالا وثيقا، ومنذ اطلاق باختين لهذا المصطلح شاع ظهوره في الدراسات النقدية، وبخاصة العجيبة أو العجائبية منها.

وفي السياق نفسه يعرفه خليفه عنه إنه "يتمظهر في الرواية الفانتاستيكية باعتباره وحدة قائمة تؤطر الحدث العجائبي فيبرز الزمن بعدا من أبعاد الفضاء، عصيا على التحديد بسهولة، فهو يلتبس العجائبية بدوره"²⁵.

إنّ هذا المفهوم يميز الكرونوتوب بصعوبة تحديد الزمن بعدما أصبح بعدا من المكان، فيتقلص ويتمدد؛ أي يقصر ويطول، ويثير حيرة ودهشة لدى المتلقي/القارئ من عجائبيته كونه وحدة من أهم مكونات الخطاب العجيب أو العجائبي.

كما أن الزمن العجيب يعد زمنا معلقا، لا يحدد إلا بزمن القراءة من جهة وزمن الحدث فو الطبيعي من جهة أخرى، حيث يقول "تودوروف" في هذا المقام: "إن زمان وفضاء العالم فوق الطبيعي... ليس هما فضاء وزمان الحياة اليومية ذلك أن الزمن يظهر هاهنا معلقا"²⁶.

ويميز تودوروف في هذا التحديد بين زمان ومكان الحياة اليومية، وزمان مكان العالم فوق الطبيعي؛ فهذا الأخير يتّصف بكونه خارقا للعادة والطبيعة وغير مألوف لدى الإنسان.

والزمن قد يعطلّ السرد ويعلقه؛ إذا وجدت استراحة (Pause)؛ وهذا التعطيل يستغله العجيب في زيادة وإثارة الدهشة والحيرة؛ ونجده بكثرة في الحوارات بين الشخصيات. كما أنّ هذا التعطيل قد يؤثّر على "الربط المتواتر بين أسلوب المشهد وتقنيات الحلم والتخييل، وتوقّ كل ما هو عادي واستثنائي في المواقف والأوضاع"²⁷.

أما المكان العجيب فيتجلّى أكثر في الأمكنة المغلقة؛ والتي يمكن أن تنفتح على الخارج من خلال التخييل، يقول "غاستون باشلار": "إنّ المكان الذي يجذب نحوه الخيال، لا يمكن أن يبقى مكانا لا مباليا ذا أبعاد هندسية وحسب فهو مكان قد عاش فيه بشر ليس بشكل موضوعي فقط بل في كلّ ما في الخيال من تحيّز إننا ننجذب نحوه لأنه يكتّف الوجود"²⁸.

فمثلا أماكن مغلقة دائمة أو مؤقتة كالبيت أو السجن أو الحمام، فقد يتغير دورها إلى تأدية أدوار أخرى عجيبة؛ فلا يبقى البيت للدق والاستقرار بل للفوضى وعدم الاستقرار، والسجن قد يكون استعدادا للرحيل من بعد وهكذا بقية الأمكنة المغلقة التي تبدى كثيرا في السرد.

أما إذا عرجنا إلى رواية وشي آخر فنجد الكرنوتوب واضحا وجليا من أول الرواية حتى نهايتها، يقول السارد عن بئر أهل الزيتون: "كان أهل الزيتون العليا تجمعهم بئر واحدة يستقون الماء منها، وعيون سبغ ثرثرة كانوا يسقون منها حقولهم وحدائقهم الفيحاء... لقد ثبت لعقلانهم أن الجن كانت تزاحمهم فيها أيضا. تين ذلك الشأن لديهم تيقنا. كان الزيتونيون من الإنس يستقون بالنهار وكانت الجن تستقي ليلا، كان الفريقان يتعايشان يتقاسمان الماء دون الفضاء، كان للجن الأسفل، وللإنس من أجدادك الأعلى... ولا أحد يعرف متى حُفرت تلك البئر ولا متى طويت، أيضا؟ ولا من حفرها؟ ولا من طواها؟ كانت أزلية التاريخ، سحيفة القدم، عجائبية الوجود..."²⁹.

فالمكان والزمان اتصالا واتصالا وثيقا، وارتبطا أيضا ببقية المكونات السردية كالشخص؛ فالإنس من بلدة الزيتونيين يستقون من البئر نفسها التي تستقي منها الجن، باختلاف الزمن، هذا الأخير لن يكون مختلفا كثيرا، لأنهم في غالب الأعم لا يدرون من بنى البئر ولا من احتفرها، هل الإنس أم الجن؟

ثم سرد لنا الروائي الحيز المشترك بين الإنس من الزيتونيين في الأعلى، والجن من أهل ثخشضار في الأسفل "إنه ثبت لديكم أن قوما من الجن يسكنونكم بلدتكم، وما يجاورها من حيز الشجرة العجائبية. كانوا يشاطرونكم في معظم الأشياء. لكن دون اغتصاب أو اعتداء. بل كان بعضكم سعيدا بذلك. فكان يعدّه ضربا من الحماية للزيتونية العليا وأهلها من كل شر وبلاء... بل ثبت لديكم.. أن الجن لها ملكة مخفية في أسافل بعض هذا الرجا،

أذن لها بذلك سيدي حسان، فشيدتها وأقامت فيها عجائب البنيان وبديعات الأشياء، ولكن على أن تبني مدينتها تحت الأرض لا فوق وجهها، بحيث لا تزعج لزيتونيين في معاشهم وحركاتهم أيضا. للجن أسافل الأرض وللزيتونيين أعاليها...³⁰.

وما زاد العجيب عجيبا هو تشاطر الجن للإنس للممتلكاتهم ومعظم أشياءهم دون اغتصاب أو اعتداء، ليظن القارئ أنّ هذه المدينة خارقة للعادة، بل هي كذلك، أو كما تبدو، للجن مملكتهم أسفل البئر، وللإنس بلدتهم في الأعلى، لا يمكن تحديد الزمان بدقة، لأنه أضحى في المكان متجليا بوضوح.

أما اسم مدينة الجن فكان "الثخشضار" يقول السارد: "ولذلك ابتنت الجن مدينتها العجيبة أسافل هذه البئر العظيمة، ثم لم تلبث أن اتخذتها لها عاصمة مملكتها، ثم أطلقت عليها اسم مدينة الثخشضار..."³¹.

كما أضفى العجيب أيضا على اسم المكان، فالثخشضار اسم لمدينة الجن وعاصمتهم، هو اسم صعب إعادة قراءته؛ لأنه ليس فصيحاً، وغرابته هي غرابة عيش الجن أنفسهم، إنها الأمكنة تأتي هكذا لتسم بعضها البعض.

وما يثير الغرابة والعجب أكثر هو خروج الجنية خناتيتوس لسارة الزيتونية ضحى وليس ليلا- كما هي العادة في زمن الجن- يقول السارد: "ثم بدأت السعاللة بعد تكرار اللقاء كل ضحى تقريبا..."³².

إنّ عادة الجن أن تخرج ليلا لكي لا يراها الناس لكن في الزيتونية العليا قد تخرج نهارا، ممثلة في الملكة خناتيتوس صديقة سارة، التي تخرج في وقت الضحى، مرئية كامرأة عادية لكن بمواصفات الجن.

5. خاتمة:

نستخلص في الأخير، أنّ المحكي العجيب نظريا وتطبيقيا في رواية وشيء آخر لعبد الملك مرتاض قد كشف عن الكثير من المفاهيم العلامات الفارقة، وأبدى مكونات السرد من شخوص وزمان ومكان وأحداث تتفاعل فيما بينها وتتداخل بل تتصل ببعضها، ومن أهم النتائج:

-بات مفهوم المحكي العجيب يشير إلى كل حكي يثير الدهشة والغربة والعجب والحيرة، يؤثر في المتلقي كما يعد حكيًا غير مألوف، يخالف الطبيعة فهو فوقها، محكي يتمظهر في السرد الروائي كما في غيره، ويتميز بال جذب والتشويق.

-عرف مصطلح العجيب عديد المصطلحات لدى النقاد والباحثين كغيره من المصطلحات التي ظهرت في النقد الجديد، فمنها الغريب أو الغرائبي، والعجيب أو العجائبي، والخارق أو الخوارقي، والفانتاستيك، و المدهش، والخرافة، والكثير منها، وسبب الاختلاف قد يكون تعدد المناهل والترجمات الحرفية، وأيضا عدم وجود مدارس عربية تُعنى بتوحيد المصطلح النقدي.

-تعد رواية وشيء آخر لعبد الملك مرتاض نموذجا متفردا في الكتابة العجيبة أو العجائبية في الساحة الأدبية العربية والجزائرية، فهي رواية العجيب بامتياز؛ لكون جل مكوناتها السردية قد لبست لباس العجيب من الشخصيات والزمان والمكان والأحداث وحتى عنوانها.

-تبدت علامات الشخصيات العجيبة في دلالات مختلفة، تثير الحيرة والعجب، كشخصية سارة الزيتونية التي تغيرت حالها فجأة من فقر إلى غنى، و شخصية خناتيتوس الجنية التي تحدث سارة في النهار أكثر بعد أن أصبحتا صديقتين في الواقع على الرغم من اختلاف جنسهما.

-تجلى الكرنوتوب (الزمكاني) كثيرا في الرواية؛ وأكثر التظاهرات فيها من خلال "البئر" التي يستقي منها الإنس في النهار، والجان في الليل، في واقع خارق للعادة، ومثير للدهشة، حتى أناس بلدة الزيتونية ألفوا ذلك، وصار عندهم أمر معتادا ومؤنسا وحماية أيضا من الأعداء حسب زعمهم.

-لم يكن المكان مكان ولا الزمان زمان، ولا يمكن أن ينفصل الأول عن الآخر فأرض الزيتونية للإنس تحتها أرض الجن وعاصمتها الثخشضار، يعيشون في سلام، وفي كل زمان؛

فهاته البئر التي فوق أرض الزيتونين من الإنس، هي أيضا أرض الشخصضاريين من الجن، إنها مفارقة الكرونوتوب وعجائبية الوجود في الرواية. -إنّ أحداث الرواية العجيبة خلقت الكثير من العلامات والدلالات، فجعلت غير المتوقع متوقّعا، وغير المعتاد معتادا، والموحش مؤنسا، وهذا ما لاحظناه في حدث خروج الجنية خناتيتوس أم سارة في حقلها فجأة، واعتياد سارة على ذلك كلّ مرة، دون خوف ولا هلع، بل زاد الحدث غرابة حين انتقل إلى مرحلة الحوار بين الإنسانية سارة والجنية خناتيتوس في مشهد مثير للدهشة والغرابة، خارق للعادة والمألوف. -ومهما يكن من عجيب محكي الرواية؛ فإنها تحمل الكثير من العلامات الأخرى التي تزداد كلّما تابعت السرد، بل كلما كررته، وبالتالي تبقى القراءة هي مَنْ تخلق الإبداع في كل المحكيات، بما فيها العجيبة.

- 1- ابن منظور، لسان العرب، دار المعارف، دط، القاهرة، مصر، دت، ص 954.
- 2- المصدر نفسه، مادة (عجب)، 2811-2812.
- 3- المصدر نفسه، ص 2812.
- 4- سورة هود، الآية 72.
- 5- سورة ق، الآية 2.
- 6- سورة الكهف، الآية 9.
- 7- سورة الكهف، الآية 62.
- 8- سورة الجن، الآية 1.
- 9- القزويني، عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات، مطبعة المعاهد، دط، القاهرة، دت، ص 5.
- 10- تودوروف، مدخل إلى الأدب العجائبي، تر: الصديق بوعلام، دار شرقيات، دط، القاهرة، 1994، ص 57.
- 11- ينظر: شعيب حليفي، شعرية الرواية الفانتاستيكية، دار الحرف للنشر والتوزيع، ط2، المغرب، 2007، ص 51.
- 12- تودوروف تزفيتان، مدخل إلى الأدب العجائبي، ص 44-57.
- 13- إبراهيم فتحي، المصطلحات الأدبية، التعاضدية العمالية للطباعة والنشر، دط، صفاقس-تونس، 1986، ص 142.
- 14- يوسف وغيلسي، إشكالية المصطلح في الخطاب النقدي العربي الجديد، منشورات الاختلاف، ط1، الجزائر العاصمة، الجزائر، ص 79-105.
- 15- الخامسة علاوي، العجائية في أدب الرحلات، رحلة ابن فضلان، شهادة ماجستير، جامعة منتوري، قسنطينة-الجزائر، 2005، ص 97.
- 16- بن دبله جلول، تجليات العجائبي في لخطاب الروائي رواية التبر لإبراهيم الكوني مقارنة أسلوبية، رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في الأدب العربي إشراف الأستاذ الدكتور هواري بلقاسم، قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب واللغات والفنون، جامعة السانية وهران-الجزائر، 2011-2012م، ص 33.
- 17- المرجع نفسه، ص 33-34.
- 18- ينظر: شعيب حليفي شعرية الرواية الفانتاستيكية، دار الحرف للنشر والتوزيع، ط2، المغرب، 2007، ص 177-179.
- 19- عبد الملك مرتاض، وشي آخر، تجريب في نممة اللغة وعجائبية الحدث، دار القدس العربي، دط، وهران-الجزائر، 2018، ص 46.
- 20- شعيب حليفي، بنيات العجائبي في الرواية العربية، مجلة فصول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 1997، ص 118-119.
- 21- عبد الملك مرتاض، وشي آخر، ص 40-41.
- 22- المصدر نفسه، ص 53-54.
- 23- ينظر: شعيب حليفي، شعرية الرواية الفانتاستيكية، ص 154.

- 24-الخامسة علاوي، العجائبية في الرواية الجزائرية، دار التنوير، دط، الجزائر، 2013، ص301.
- 25-المرجع نفسه، ص158.
- 26-تودوروف، مدخل إلى الأدب العجائبي، ص150.
- 27-حسن بحراوي، بنية الشكل الروائي، المركز الثقافي العربي، ط1، بيروت-لبنان، 1991، ص172.
- 28-غاستون باشلار، جمالية المكان، تر: غالب هلسا، المؤسسة الجامعية للدراسات والتوزيع، ط2، بيروت-لبنان، 1984، ص31.
- 29-عبد الملك مرتاض، وشيء آخر، ص12-13.
- 30-المصدر نفسه، ص30.
- 31-المصدر نفسه، ص30.
- 32-المصدر نفسه، ص45.